

الشيخ محيي الدين بن مصطفى والزاوية القادرية.

محمد بكار كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية/

جامعة حسيبة بن بوعلي/الشلف.

مقدمة :

من بين الشخصيات الوطنية التي لم تنل نصيبها في الكتابة التاريخية نذكر شخصية الشيخ "محيي الدين بن مصطفى" التي قلما تطرق إليها المؤرخون خاصة المؤرخون الجزائريون لعدة اعتبارات ولعل أهمها اقتران هذه الشخصية مباشرة بشخصية الابن "عبد القادر" الذي نال كل الاعتراف والتقدير لكونه مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة بمفهومها الوطني، وأهم قائد للمقاومة الشعبية بعد الغزو الفرنسي للبلاد منذ بيعته سنة 1832. ويعتبر الشيخ "محيي الدين بن مصطفى" من الشخصيات المخضمة التي عايشة نهاية الحكم العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، فهو ذلك الزاهد والمتصوف والقائد الذي يعتبر أحد رواد الطريقة القادرية في الغرب الجزائري أيام الحكم العثماني.

لقد كان للشيخ "محيي الدين بن مصطفى" الفضل الكبير في بعث روح الجهاد والمقاومة في نفوس الجزائريين بعد أن وطأت أقدام الاستعمار الفرنسي أرض الوطن عام 1830م. وكان على رأس المقاومين لما سقطت مدينة وهران، عاصمة بايلك الغرب بعد تنازل آخر باياتها "حسن" الذي لم يعد يقاوم لكبر سنه، ورحلته فرنسا إلى الاسكندرية. والمعروف عن الحاج "محيي الدين بن مصطفى" أنه اتصف بالحكمة واليقظة والحزم وبالمواقف الجريئة خلال مواجهته لمتاعب الزاوية والمقاومة، كما عرف في حياته بالسخاء والكرم. كل هذا تجلّى لديه لما استطاع أن يجعل من النضال أسلوباً للتعبير عن الذات والقيم الإسلامية المثلى لقبائل الحشم والقبائل الأخرى التي دخلت في حماه مع بداية الاستعمار إن لم نقل قبله. ويكفيه فخراً أنه قام بالتنازل عن الإمارة لصالح ابنه "عبد القادر" ليكمل هذا الأخير فريضة قيادة حركة الجهاد وطرد الاستعمار من البلاد. والواضح أنّ الشيخ "محيي الدين" لم يبدأ أبداً طمعاً ولا رغبة في الإمارة والسلطنة رغم أنها عرضت عليه بإلحاح من قبل عشيرته والقبائل كمرة.

1 - مولده ونسبه :

ولد الشيخ محيي الدين بن مصطفى سنة 1190هـ/1775م، ونشأ بطرف "غريس" من الجهة الغربية على مرحلة من الجهة الغربية من أم معسكر في قرية اختطها جده في شهر أكتوبر من عام 1786م، ودام مشروع البناء حتى

سنة 1791م¹. واشتهر اسم هذه القرية بالقيطنة، وهي كلمة مشتقة من القطن، وتشرف القرية على مشارع واد الحمام، وهو واد من أكبر الأودية وأغذاها ماء ذا عروج عن يمينه وشماله، صالحة للزرع والضروع، وينسب الوادي إلى ولي مزارقبره اسمه "سيدي محمد بن الحنفي"².

وينتسب "الشيخ محيي الدين" من حيث النسب إلى أول أجداده الذي يرجع أصله إلى أسرة "علي ابن طالب"، وهو "عبد القوي الأول" الذي نزل بقلعة "ابن حماد" ثم بتاهرت. وانتقل ولده "أحمد" المعروف "بابن خدة" إلى وادي العبد قرب "غريس" وفيها استقر³. وعلى غرار انتماء عائلة "محيي الدين بن مصطفى" إلى النسب الشريف، فإنها تمكنت في عدة مناسبات المشاركة في مقاومة الاستعمار، مثل جدّه "محمد بن المختار" المعروف بالمجاهد (1095هـ - 1163هـ) والذي استشهد في مقاومة الجيش الأسباني في ساحة وهران، وحمل جثمانه إلى "غريس" رغم بعد المسافة⁴.

لقد ترك الجد الشهيد ابنه "مصطفى" (والد الشيخ محيي الدين) صغيرا، فتكفل أعمامه برعايته وتربيته خلال مرحلة طفولته إلى أن كبر وتزوج وأنجب الابن "محيي الدين". لقد كان الابن "محيي الدين بن مصطفى" أوفر حظا من الوالد، حيث نشأ وترعرع بين أحضان والده الشيخ "مصطفى"، وتعلم في زاوية القيطنة التي تبعد عن مدينة معسكر بحوالي (30 كلم) على يد علماء غريس حتى كبر واشتد عوده، وأخذ من الطريقة القادرية العلم ومبادئ التصوف وهذا ما مكّنه من الإشراف على هذه الزاوية بعد وفاة والده.

ومما سبق نذكر أن الشيخ "محيي الدين" تزوج من أربع نساء، ورزق منهن بست أولاد وبنت واحدة هم على التوالي: "محمد سعيد"، و"مصطفى" من الزوجة الأولى "عريضة بنت سيدي الميلود"، و"الحسين" من زوجته الثانية "فاطمة بنت سيدي دحو"، و"عبد القادر" (الأمير قائد المقاومة)، وشقيقته "خديجة" من زوجته الثالثة "زهرة بنت سيدي عمر بن دوية"، أما المرتضى فمن زوجته الرابعة "خيرة"⁵.

ونظرا للوضع الميسور الذي تمتعت به العائلة ككل، فكان بيت "الشيخ محيي الدين" (شيخ الزاوية القادرية) يضم نحو ستون خادما وخادمة، ومع ذلك، فإن زوجاته وحتى ابنته ثابرن جميعا على خدمة الزاوية، ولم يتركن أبدا خدمة البيت وشؤون تربية الأولاد. وبصفته المسؤول الأول عن الرعية وأحوال الناس داخل الزاوية وخارجها، تمكن الشيخ "محيي الدين" من اكتساب تقوى كبيرة وود الجميع بفضل علمه وزهده في الحياة، حيث كان يلقي الأوراد القادرية للمريدين من جهة مراكش، وسوس، وشنقيط، ومن نواحي إفريقيا. بل كان له تلاميذ من الإسكندرية⁶.

2 - محيي الدين بن مصطفى شيخا على الزاوية القادرية :

ظهرت الطريقة القادرية في الجزائر قبل مجيء العثمانيين بكثير، واختلطت هذه الطريقة في البداية بتعاليم الطرق الأخرى الموجودة داخل البلاد وعلى رأسها الطريقة الشاذلية. وشجع الأتراك الطريقة القادرية المنتشرة في مدينة

بجاية بتبادل التقدير والاحترام، وهو السلوك نفسه الذي اتبعوه نحو الطرق الصوفية الأخرى الموجودة داخل الإيالة. ويعود انتقال هذه الطريقة إلى الجزائر بفضل الحجاج الجزائريين من العلماء والصالحين آنذاك الذين ألفوا التوجه بعد الانتهاء من أداء المناسك في الحجاز إلى بغداد لزيارة ضريح الشيخ "عبد القادر الجيلاني"، وتقديم الهدايا الثمينة إلى حراس الضريح، وكانت تلك الزيارة عندهم جزءاً مكملًا للحج والرحلة من أجله، إذ لا يصح أن يعودوا إلى بلادهم دون الوقوف عند "مولى بغداد" والتبرك على ضريحه⁷. أما فضل تأسيس أول زاوية أخذت من تعاليم الطريقة القادرية في القطر الجزائري إنما يعود إلى الشيخ "مصطفى الغريسي"، والد الشيخ "محيي الدين" نحو عام (1200هـ/1785م)، حيث أصبحت هذه الزاوية تعرف بزاوية "القيطنة" القريبة من مدينة معسكر كما ذكرنا.

لقد كانت تطلعات الشيخ "مصطفى الغريسي" كبيرة لما أراد توسيع زاويته بالقيطنة ليجعل منها قطبا ومعهدا لطلب العلم ونشر الطريقة القادرية في معسكر والمناطق الأخرى خلال فترة توليه شؤون الزاوية، غير أنه توفي في طريق العودة من الحجاز بعدما نال منه المرض ودفن في برقة بليبيا سنة 1212هـ. وفيما تعلق بخليفته على أمر الزاوية من بعده، فقد سبق أن ذكر لمراقبيه أنه تركها لولده "محيي الدين" مسرعة⁸. وفي حياته، حج الشيخ مصطفى أربع مرات، ولازال قبره موجودا إلى اليوم عند عين على ساحل البحر يقال لها "عين غزالة" مكتوبا عليه بحجرة نقشاً على قدر مقامه "هذا قبر سيدي الحاج مصطفى الغريسي"⁹.

وفي مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، ساءت العلاقة بين الحكام الأتراك والجزائريين مما دفع بالإدارة الحاكمة من الأتراك إلى التمرکز في المناطق الحضرية خوفا من رد فعل الجزائريين وانتشار الثورة داخل البلاد، وتمتعوا في هذه المناطق بسلطة مطلقة، فمن جهة هم القواد، والقضاة، والجبابة، وكانت كلمتهم لا ترد، وحكمهم نافذ، فمن شأوا أنقذوه، ومن شأوا أغرقوه¹⁰. وفي هذه الظروف الصعبة والمضطربة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، بحث الجزائريون على منفذ يعيد لهم التوازن المفقود بعد أن سلبت منهم إرادتهم أكثر من ثلاثة قرون كاملة بسبب سوء معاملة إدارة الأتراك لهم، وتحرش الأسباب المتكررة على الشريط الساحلي، ولهذه الأسباب اضطرت معظم القبائل والعائلات الجزائرية النفور من تجمعاتهم الأصلية واختيار منطق مقاطعة التعامل مع الأتراك، ولجئوا تحت طائلة الضغط إلى تعمير مناطق جديدة في الواحات والقرى الجبلية، ومنهما ظهرت البنية الاجتماعية الجديدة للمجتمع الجزائري المفكك الباحث عن الأمن والاستقرار¹¹.

كان المجتمع الجزائري في هذه الفترة من تاريخه أكثر حاجة إلى زعامة تقوده وسلطة تحميه، ولم يجد ضالته إلا لدى شيوخ الزوايا، هؤلاء الذين تمكنوا الجمع بين الزعامة السياسية والروحية لتسيير أمور الناس آنذاك. ففي المنطقة الغربية للوطن برزت زعامة الشيخ "محيي الدين بن مصطفى بن المختار الحسيني" كواحد من بين الزعماء

الدينيين الذين بسطوا نفوذهم على كامل منطقة معسكر قبل الاحتلال، وكان قبل مجيء الغزو الفرنسي يكافح طغيان الحكام الأتراك وتعسفهم¹².

والمعروف عن دور عائلة الشيخ "محيي الدين" أنها لعبت دورا كبيرا في المنطقة نظرا لما تمتعت به من جاه ونفوذ ووقار، وازدادت مكانتها أهمية بعد توليها شؤون الزاوية القادرية التي أصبحت قبلة لطلبة العلم والزوار من عدة مناطق وبلدان كما أشرنا. كل هذه العوامل سهلت من مهمة الشيخ "محيي الدين" على إدارة الزاوية بطريقة محكمة، ولهذا عرفت "القيطنة" في عهده إشعاعا دينيا وثقافيا لم يسبق له مثيل، وقصدها الكثير من الناس إما لعلم ينتفعون به أو شغف لزيارة الزاوية أو طلبا لحاجة خاصة الفقراء والمحتاجين. وحسب مذكرات "الأمير عبد القادر"، فإن الزاوية كانت مفتوحة لحفظ القرآن، حيث تراوح عددهم ما بين خمسمائة إلى ستمائة لا يسمع المار بها إلا دوي القراءة في كل وقت مع تدوين العلم بأكثر أنواعه بمسجدها المعد للصلاة، والذي كانت فيه سبع مجالس للتدريس، كما ذكر الأمير أن من بناه هو قائد من ولاية وهران كان يرجو التقرب به إلى الله¹³. لكن الأرجح في هذا الكلام أن من بناه هو الباي "محمد الكبير" المعروف بـ"بوشلاغم" لما كانت معسكر بايلك الغرب قبل أن يتمكن هذا الأخير من تحرير مدينة وهران ونقل عاصمته إليها.

لقد لعبت زاوية "القيطنة" دورها كاملا كمؤسسة دينية وعلمية، حيث كانت بمثابة معهد بالمفهوم المعاصر، تجمع ما بين تدريس القرآن الكريم، والسنة النبوية، ومبادئ الشريعة الإسلامية. وزيادة على هذا الدور، ساهمت في تلاحم السكان، وأظهر أهل الخير منافسة شريفة في الإنفاق على الزاوية، ومد العون للشيخ "محيي الدين" من أجل أن يتكفل بالطلبة القاصدين للزاوية، ومساعدة المحتاجين وعابري السبيل في أحسن الظروف. ويجدر الإشارة هنا، أن جانب التكافل الاجتماعي كان ضمن سمات الكرم والوجود الذي تميزت به المنطقة، حتى أن سكان "القيطنة" تعودوا أن يخرجوا في كل ليلة الطعام الكثير للضيوف، وهو الشيء الذي جعل الشيخ "محيي الدين" ينشغل بأمور أخرى تهم الزاوية، فكان مع ابنه "عبد القادر" ملازما للصلاة والعبادة، لا تراه إلا مصليا أو تاليا أو ذاكرا أو مدرسا، والليل كله يقطعه متهجدا، ولا يتركه بسفر ولا حضر¹⁴. ويمكن القول أن الزاوية اتسعت للجميع، فكانت فعلا قبلة للزوار ومكانا تجمعت فيه القبائل طلبا للأمن والاستقرار وهو الشيء الذي لم توفره سلطة الأتراك الحاكمة. ولعل أهم من لجأ إلى الزاوية القادرية بـ"القيطنة" هم المستضعفون، والمضطهدون، وزعماء القبائل، كما دخل في حمة الشيخ "محيي الدين" البعض من المغضوب عليهم من قبل الأتراك أمثال أتباع "محمد بن شريف" وعائلاتهم بعد فشل ثورتهم. كما كانت "القيطنة" محكمة للإيالة تحل تحت قوسها مشاكل الناس وخلافاتهم العائلية والاجتماعية. وأشفق "محيي الدين" على المرضى وأعانهم في ضيقهم، وأحسن إلى الفقراء وساعدهم أثناء محنتهم، وأمد المشردين والمحتاجين قوتا من محصوله، وأعطى اليتامى قسما من هداياه، فانتشر اسمه واعتبره الجميع أبا رؤوفا، وقائدا أميناً¹⁵.

3- مكانة الشيخ محيي الدين الاجتماعية والسياسية :

من الواضح أن مسئولية الإشراف على أمور الزاوية قد أخذت كل وقت الشيخ "محيي الدين" الذي سهر على رعايتها بكل تفاني، وكان لا يفارقتها إلا لساعات لما يزور مدينة معسكر بصحبة ابنه "محمد السعيد"، و"عبد القادر" لقضاء حاجاته والتزود بالمؤن ومتطلبات الحياة ومستلزماتها. وكان يوم زيارة معسكر، فرصة لزيارة كتاتيب المدينة، والمدرسين، والموردين، وبعض الأصدقاء أمثال "سي محمد بوراس" العالم الذي ألف عدة كتب دينية، وكان قاضيا للمدينة. ومما لا شك فيه أن الشيخ "محيي الدين" نال منزلة خاصة في قلوب الناس عامة، ولعب دورا سياسيا هاما في عهد الأتراك بدفاعه عن استقلال القبائل النازلة في المناطق الداخلية ضد سيطرة الحكومة الرسمية¹⁶.

وعكس المواقف العدائية لبعض شيوخ الزوايا تجاه السلطة العثمانية في البلاد، فإن الشيخ "محيي الدين" أبدى وجها مسالما رغم تحفظاته منها ولم يكن متعاطفا مع النظام العثماني ولا مع من كان يمثل¹⁷. فسياسته كانت ترمي إلى التعايش حتى تنعم منطقته بالأمن والسلم. ويعود السبب الرئيسي في اختيار الشيخ "محيي الدين" هذا النوع من السياسة إلى ذلك الاحترام الذي كان يكنه للباي العثماني "محمد الكبير" مخلص وهران من الأسبان، والذي وقف مساعدا للمحرومين في شتاء عام 1779م بعدما عرفت المحروسة مجاعة كبرى. ولم يكن هذا الموقف إلا استثناء من قبل شيخ الزاوية القادرية نتيجة الصداقة التي كانت تربطه بحاكم اليايلك. وكان بديهي أن تتغير الأمور بعد تولية الباي "حسن" بايلك الغرب، حيث توترت العلاقة بين "محيي الدين" والباي الجديد الذي أصبح أكثر حذرا من الشيخ لشعبيته وقدرته على استنفار القبائل كما حدث للموكب الذي كان يرافق شيخ الزاوية القادرية إلى الحج. وذكر هنري تشرشل أن الشيخ "محيي الدين" اختار "عبد القادر" لمرافقته إلى الحج دون إخوته الآخرين رغم توسلاتهم، ليغادر الأب والابن قرية "القيطنة" في أكتوبر 1823¹⁸. وقد منع الباي "حسن" الشيخ من متابعة رحلته إلى الحج وهو يشرف سن الخمسين، ووضع رفقته ابنه "عبد القادر" تحت الحراسة والإقامة الجبرية في وهران. ومن الأسباب التي دفعت باي وهران إلى اتخاذ هذا الإجراء التعسفي، نذكر تخوفه من تداعيات رحلة الشيخ المثيرة للشك والتي أثارت حفيظة الباي بفعل الوشاية. ففي نهاية اليوم الأول منها رأى "محيي الدين" منات من العرب يطالبون بشرف وشغف كبير مشاركته في رحلته المباركة إلى الأراضي المقدسة. وفي اليوم الثاني أصبح عددهم بالآلاف. وفي اليوم الرابع أقيم بحر من الخيام حول خيمته. إن محيي الدين كان مرابطهم، ورئيسهم، وقديسهم، وستتضاعف بركة أولئك الذين يتطلعون تحت رعايته، إلى تقبيل الكعبة المقدسة. وفي عشية اليوم السادس تجمع الركب الكبير على ضفة نهر جديوية في سهل الشلف¹⁹. ورغم معارضة المناصرين ذهبه إلى الحاكم بوهران خوفا عليه من العواقب، استجاب الشيخ للدعوة ورضي بالحكم، وقد استمر هذا الوضع الشاق دون وهن سنتين، ولم يقم محيي الدين بأي احتجاج²⁰.

4 - رحلته إلى الحج :

لم يطلق سراح الشيخ "محيي الدين" و"عبد القادر" إلا بعد تدخل زوجة الباي "بدرة" وبعض أعيان المدينة أمثال "مصطفى بن اسماعيل" و"المزاري". وفي رحلته الثانية، خرج الشيخ "محيي الدين" رفقة ابنه متنكرا من وهران بعد الإفراج عنهما نحو الحجاز عبر البحر دون العودة إلى "القيطنة" خوفا من إثارة الفتنة، وتجنب وقوع الحرب مع السلطة العثمانية. والشيء الملاحظ أن الشيخ قد حظي باستقبال على قدر منزلته أينما حلّ في مصر من قبل واليها آنذاك "محمد علي باشا"، والشيء نفسه كان له في الحجاز. وبعد أداء فريضة الحج، عرج الشيخ محيي الدين على دمشق وزار علمائها، ووصل بعدها إلى مدينة بغداد، حيث زار ضريح الشيخ "عبد القادر الجيلاني". وفي المدينتين السالفة الذكر، نال تقدير الحكام والأعيان، لكنّ عودته إلى الوطن استغرقت هذه المرة مدة أطول بسبب اختياره الطريق البري من الحجاز في بداية سنة 1828م وهذا إنّما راجع لنفاذ أمواله. ولما وصل إلى الديار، أقام الشيخ "محيي الدين" وليمة كبيرة بـ"القيطنة" احتفالا بسلامته وسلامة ابنه بعد سفر شاق، واستمر بعد ذلك في نشاطه في إدارة شؤون الزاوية وتسيير أمورها كما كان الحال قبل رحلته.

5 - الجهاد في سبيل الله :

على عكس المقاطعات الجزائرية الأخرى، عرفت مقاطعة بايلك الغرب عدة عواصم، فمن مدينة "مازونة" نقلت إلى مدينة "معسكر" سنة 1710م لتتنقل أخيرا إلى مدينة "وهران" عام 1792م بعد طرد الأسبان منها. لقد كان للتنظيم الإداري العثماني عدّة انعكاسات سلبية على المجتمع الجزائري سياسيا وعسكريا، حيث كرس الفرقة بين الجزائريين وأضعف القدرة الدفاعية للعاصمة إن لم نقل كامل التراب الوطني. فكان من البديهي أن تظهر سلطة الحكام بشيء من عدم التماسك نتيجة الانقسام وعدم تقدير المخاطر الخارجية منذ الحصار الفرنسي عام 1827، فكل ما كان يهم الأتراك حينها هو جمع الضرائب بشتى الطرق، وهذا ما تجلّى فعلا لما وطأت أقدام الجيش الفرنسي ساحل "سيدي فرج"، لتعرف البلاد مأساة حقيقية بعد استسلام الداي "حسين" يوم 5 جويلية 1830م الذي ترك الشعب الجزائري وجهها لوجه مع المستعمر، ولتمر الجزائر بمرحلة فراغ سياسي طيلة مدة الاحتلال.

لقد ازداد الأمر تعقيدا إذن نتيجة التفكك السياسي بعد تنكر البايات للسلطة المركزية واستقلالهم بمقاطعاتهم طمعا بالبقاء في السلطة، لكن الأمر لم يدم طويلا حيث سلك باي وهران "حسن" طريق الداي "حسين" حين سلم مدينة "وهران" بسرعة يوم 4 يناير 1831م بعدما شعر بالمأزق ورغبة العرب بالثأر منه لطغيانه، وقرّر بعد رفضه فكرة الهروب... أن يرسل إلى محيي الدين ويتوسل إليه أن يحميه²¹. ورفض من جهته الشيخ "محيي الدين" طلب الباي بعد استشارة قومه خوفا من غضب القبائل الثائرة. ومع تسارع الأحداث والمخاطر التفت القبائل حول شيخ الزاوية القادرية

"محيي الدين" ليقود المقاومة، وحسب ما ذكره أبو القاسم سعد الله، ولا شك فيه، فإنّ دراستنا أثبتت أنّ الطرق الصوفية في الجزائر تضعف عندما تقوى السلطة الدنيوية (الزمنية) وتقوى عندما تضعف هذه أو يتعرض الدين للخطر²². وقد شعر "محيي الدين" هو الآخر، والذي كان إلى الآن ملاحظا ومسالما، بأن الوقت قد حان للعمل. وبأمر منه قام "عبد القادر" وأخوته، مع حامية هامة، بطواف السهول من كل جانب، وحماية المشردين المنكوبين، وانقاذ كثير منهم من أيدي اللصوص وأخذهم جميعا إلى أماكن مأمونة²³.

وهكذا إذن أصبح الحاج "محيي الدين" هو قائد حملات الحصار الشعبية، وهي الحملات التي لم تكن نعرف فيها بالضبط، ولكن بالتأكيد إنها كانت تضم الفلاحين وفقراء المدن وإخوان الزوايا وفرسان "القوم"، الذين بعثت بهم القبائل البعيدة²⁴. وبفعل هيئته ووقاره، استطاع الشيخ "محيي الدين" في ظرف قصير من جمع المتطوعين، وقيادة معركة "خنق النطاح" الأولى في وهران عام 1832م، كما شارك في معركة "برج رأس العين" بالمدينة نفسها، وقطع على جيش الاحتلال طريق المواصلات، وذكر أبو القاسم سعد الله من خلال الاعتماد على بعض المصادر أنّ قوات "محيي الدين" عندئذ كانت حوالي اثني عشر ألف رجل²⁵.

ومهما يكن مصدر جيش مقاومته، كانت الأوضاع سيئة بعد استسلام باي وهران وخروج أهل المدينة منها بعد دخول الجيش الفرنسي، كما اعترف باي مستغانم "إبراهيم" بالسلطة الفرنسية لكي يحتفظ بمنصبه²⁶. والأخطر من هذا هو بروز معارضين للشيخ محيي الدين وللزاوية القادرية، وما دامت أول قيادة للمقاومة الشعبية قد ظهرت على يد مرابط (الحاج محيي الدين) فلماذا لا يكون أول المخالفين له ولابنه من بعده هو الأغا مصطفى بن اسماعيل، من الأجواد، وإبراهيم بوشناق، من الأتراك، والكراغلة من الحضر، والتجانية من المرابطين؟²⁷. والظاهر أنّ رغم المتاعب وعداوة البعض، حاول الحاج "محيي الدين" في آخر أيامه جمع شمل الأتراك، ورؤساء القبائل في كل من "تلمسان"، و"مستغانم" من أجل وحدة الصف، إلا أنّ مسعاه لقي الفشل. ومن الأسباب الموضوعية لفشل احتواء الأزمة والوحدة آنذاك، نذكر تردد البعض وتخاذلهم، وتعاون البعض الآخر مع جيش الاحتلال ضدّ إخوانهم، ولم يكتف هؤلاء بهذا وراحوا يمونون الجيش الغازي بالغذاء أثناء حملاتهم التوسعية. وقد أسرع "محيي الدين" و"عبد القادر"، مع رؤساء بني هاشم، رؤساء بني مهاجر، وبني عامر، وغيرهم من القبائل، لكي يعلنوا ولائهم لابن وممثل سلطانهم الجديد²⁸. وبسرعة اعترفت البلاد كلها بالسلطان المغربي. والشيء المؤسف أن أبدى ملك المغرب السلطان "عبد الرحمان" تخوفا من عواقب تقديم المساعدة بعد اتصال الشيخ "محيي الدين" بابنه "علي" على مشارف مدينة "تلمسان" من أجل الدفاع عن الجزائر مقابل الطاعة والولاء، لأنه رفض بعدما أُنذرت فرنسا بالحرب.

كانت قيادة الشيخ "محيي الدين" للمقاومة الشعبية عسكرية بحتة، جاهد الغزاة الفرنسيين قرابة السنتين والنصف دون أن يظهر فيها زعيما، أو أميرا، أو سلطانا، وإنما كان داعية جهاد²⁹، وهو من رفض الإمارة ثلاث مرات متتالية لما عرضت عليه من قبل رؤساء القبائل والزوايا. وفي الأخير وأمام شدة الإلحاح عليه، اختار ولده "عبد القادر" أميرا على الناس بعد مبايعته، ولقبه بناصر الدين عند شجرة الدردار بوادي "فروحة" من منطقة "غريس" يوم 21 نوفمبر 1832م. وقد ذكر شارل هنري تشرشل أن الشيخ "محيي الدين" قبل اقتراح القبائل إلا لما هدد بالقتل³⁰. وهكذا استسلم الشيخ محيي الدين للقدر بعدما أعياه المرض أثناء معركة "خنق النطاح" الثانية، وحلّ محله الابن الذي عرف بليونته وخجله في الصغر، لكنه تحول إلى شاب قوي اكتسب شجاعة وعلم والده. لقد كان "الشيخ محيي الدين" غالبا ما يعود به إلى عهد طفولته الناعمة ويعجب من المقارنة المدهشة³¹. لم يعمّر الشيخ "محيي الدين" أكثر من سنة بعد تولي "عبد القادر" الإمارة، وتوفي بتاريخ 3 ربيع الأول 1249هـ/1833م بعد ما اشتدّ داءه وصعب علاجه. لقد تمكن الحاج "محيي الدين" من أداء واجبه كرجل دين، واستطاع أن يجاهد في سبيل وطنه، وحملّ ابنه مسئولية قيادة المقاومة ونجح في مهمته لولا الدسائس التي تعرض لها في الداخل والخارج.

المراجع:

- 1- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992، ص. 48.
- 2- المرجع نفسه.
- 3- الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج1- 2، ط2، دار اليقظة، بيروت 1964، ص. 923.
- 4- المرجع نفسه، ص. 929.
- 5- أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري (1808- 1847)، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1993، ص. 67.
- 6- الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849، تحقيق محمد الصغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح أجون، شركة دار الأمة للطباعة، الجزائر 1994، ص. 28.
- 7- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981، ص ص: 520- 521.
- 8- الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص. 28.
- 9- الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص. 28.
- 10- ضيف الله محمد الأخضر، محاضرات في النهضة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1980، ص. 37.

- 11- المرجع نفسه ، ص.38.
- 12- يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج1، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، د.ت، ص.35.
- 13- الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص:28- 29.
- 14- المرجع نفسه، ص.29.
- 15- أديب حرب، المرجع السابق، ص.70.
- 16- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص.27.
- 17- Smaïl Aouli, Ramdane Rejala, Philippe Zoummeroffe, Abdelkader, Edition Fayard, Paris, 1994, pp:25-31.
- 18- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974، ص.42.
- 19- المرجع نفسه، ص.43.
- 20- المرجع نفسه، ص.44.
- 21- المرجع نفسه، ص.51.
- 22- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص.383.
- 23- شارل هنري تشرشل، المرجع السابق، ص.52.
- 24- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص.171.
- 25- المرجع نفسه.
- 26- مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص.215.
- 27- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص.171.
- 28- شارل هنري تشرشل، المرجع السابق، ص.54.
- 29- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص.172.
- 30- شارل هنري تشرشل، المرجع السابق، ص.56.
- 31- المرجع نفسه، ص.39.